المحاضرة الرابعـة :

المنهج الأسلوبي -2

الظواهر الأسلوبية

تعد الأسلوبية منهجا نقديا، يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب الأدبي خصائصه الفنية والجمالية، فهي بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب، وتعد ظاهرتا الانزياح والمفارقة من أبرز الظواهر الأسلوبية في النص الأدبي.

أولا : ظاهرة الانزياح:

1-1- مفهوم الانزياح ونشأته:

الانزياح لغة مصدر للفعل "انزاح" أي ذهب وتباعد، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي Ecart بمعنى البعد، ولعل أقدم استعمال لكلمة "انزياح" ورد في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في تعريب مصطلح Descent de la matrice بـ: انزياح الرحم.

أما الانزياح كمصطلح أسلوبي فهو في معناه العام " خروج عن المألوف أو ما يقتضيه الظاهر، أو هو خروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم أو جاء عفو الخاطر، لكنه يخدم النص بصورة أو بأخرى، وبدرجات متفاوتة .

إن مصطلح الانزياح هو مصطلح أسلوبي حديث النشأة غير أن مفهومه قديم ، يرتد في أصوله إلى أرسطو وما تلاه من بلاغة ونقد، فقد ميز أرسطو بين اللغة المألوفة واللغة غير المألوفة ، وهي التي تتجه نحو الإغراب وتتفادى العبارات الشائعة وهي اللغة الأدبية ، أما ما تلاه من البلاغة فنجد إيفانكوس Vasconcelos ينبه إلى قيامها على الانحراف ، فإذا كانت القواعد هي فن الاستخدام السليم للغة فإن البلاغة هي فن تجميل الكلام .

وأشار تودوروف Todorov إلى أن ظاهرة الانزيــاح قديمة وأرجعها إلى كوينتليان Quintilianus الذي وجد في الصورة خرقا للقواعد اللسانية ، وهو ما عبر عنه جان كوهن Jean Cohen في حديثه عن الصور التي اعتبرتها البلاغة منذ القديم « طرقا في الكلام بعيدة عن الطرق التي تعتبر طبيعية وعادية أي اعتبرتها انزياحات لغويــة ».

لقد حاول دارسو البلاغة والنقد الغوص في أعماق مفهوم الانزياح من الوجهة الألسنية، ما يجعل قواعده التأسيسية تتجاوز المنظور الأسلوبي الضيق لتشع بجلاء على حقول التفكير الألسني ، فرصد الانزياح في النص الأدبي يكون بدراسة الأسلوب دراسة لغوية، لذلك يجب معرفة اللغة في مستوييها: المستوى المثالي في الأداء العادي ، والمستوى الإبداعي الذي يعتمد خرق هذه المثاليّة وانتهاكها وفيه يكون الانزياح، ولا يمكن دراسة المستوى الثاني إلا بالفهم الجيد للمستوى الأول.

إن الخروج عن المستوى المثالي للغة يحدث انزياحا، وهو ما ذهب إليه تودوروف حين اعتبره " لحنا مبررا" ما كان يوجد لو أن اللغة الأدبية كانت تطبيقا كليا للأشكال النحوية الأولى، وقد حاول حصر مجال الانزياح محيلا إلى جون كوهين عندما قسم اللغة إلى ثلاث مستويات المستوى النحوي، والمستوى اللانحوي، وفيه يكون الانزياح، والمستوى المرفوض، ولا يبتعد ريفاتير عما ذهب إليه كل من تودوروف وكوهين فالانزياح عنده يكون بالخروج عن النمط التعبيري المتواضع عليه وخرق القواعد .

أقر كثير من الدارسين بقدم مفهوم الانزياح ، غير أن المصطلح حديث يرتبط بالدراسات الأسلوبية، وذهب كل من عبد السلام المسدي وأحمد محمد ويس ، إلى أن فاليري هو من وضعه وذلك في معرض مقارنته بين الشعر والنثر، فهو انحراف عن التعبير المباشر، وإذا استخدم ينشأ منه الشعر من حيث تأثيره الفني، وقد تبنى جون كوهين فكرته حين جعل الانزياح مرتبط بالشعر . ويعد ليو سبيترز أكثر من عمق فكرة الانزياح في الدراسات الأسلوبية ، «إذ يتخذ منه مقياسا لتحديد الخاصيّة الأسلوبية عموما، ومسبارا لتقدير

كثافة عمقها، ودرجة نجاعتها، ثم يتدرج في منهج استقرائي يصل به إلى المطابقة بين جملة هذه المعايير، وما يسميه بالعبقرية الخلاقة لدى الأديب» .

وحتى يكون الانزياح شعريا، ينبغي تأويله فهو ليس مطلبا في ذاته ، بل هو سبيل لانفتاح النص وتعدديته ، وما خرق قوانين اللغة إلا مرحلة أولى لا بد أن تتبعها مرحلة ثانية هي مرحلة التأويل، وهو ما يحقق الوظيفة التواصلية للغة وهذه هي أسس نظرية الانزياح التي صاغها جان كوهين، ما جعل محمد العمري يقر بأنها أكمل صياغة لنظرية الانزياح.

2- الانزياح وتعدد المصطلح:

مفهوم الانزياح مفهوم تجاذبته مصطلحات كثيرة، وهي ليست طارئة في الكتب العربية فحسب، بل إنها غربية المنشأ أصلا ، وقد ذكر عبد السلام المسدي أبرزها مع ذكر أصحابها واصلها الفرنسي.

الانزياح	فاليري Valéry	L'ecart
التجاوز	فاليري	L'abus
الانحراف	سبيتزر Spitzer	La déviation
الاختلال	والاك فاران Wellek et Warren	La distorsion
الإطاحة	بايترر Peytard	La subversion
المخالفة	تيري Thiry	L'infraction
الشناعة	بارت Barthes	Le scandale
الانتهاك	كوهين Cohen	Le viol
خرق السنن	تودوروف Todorov	La violation des normes
اللحن	تودوروف	L'incorrection
العصيان	آراقون Aragon	La transgression
التحريف	جماعة مو Le group « mu »	L'altération

كما أضاف صلاح فضل بعض المصطلحات مثل مصطلح الكسر الذي نسبه إلى تيري، ومصطلح الفضيحة ونسبه إلى بارت، كما نسب مصطلح الشذوذ إلى تودوروف، غير أنه يستعمل مصطلح الانحراف في أغلب مؤلفاته .

وقد حاول محمد ويس جمع المصطلحات الذاتية على مفهوم انزياح فوجدها تتجاوز الأربعين مصطلحا، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من مصطلحات يذكر: الجسارة اللغوية والغرابة والابتكار ويذكر الانكسار والإزاحة والانزلاق... وغيرها، ويشير إلى أن الكثير منها يفتقر إلى اللياقة –كالفضيحة، والشذوذ– كما أنها لم تلق شيوعا في كتابات الباحثين العرب، ولعل أكثرها استعمالا بالإضافة إلى الانزياح الانحراف والعدول.

3- أنواع الانزياح:

صنفت الانزياحات تصنيفات عديدة ، أهمها تصنيفها حسب تأثيرها في الوحدات اللغوية وفق مبدأي الاختيار والتركيب إلى انزياحات استبدالية وانزياحات تركيبية وهو التصنيف الشائع :

أ- الإنزياح الاستبدالي:

وهو الخروج على قواعد الاختيار للرموز اللغوية، وتعد الاستعارة عماد هذا النوع من الإنزياح وقد أورد له جون كوهين هذا المثال من شعر فاليري:

هذا السطح الهادئ الذي تمشي فيه الحمائم.

فالمقصود بالسطح هو البحر، وبالحمائم هو السفن، ولو ذُكرا بلفظيهما لما كانت في البيت شاعرية . استأثرت الاستعارة اهتمام الدارسين حتى غطى ذلك على التشبيه فهو وإن كان متضمنا في الاستعارة في البلاغة القديمة، فإن البلاغة الجديدة نظرت إليه على أنه

استعارة منقوصة، فكان ملازميه يفخر بأنه حذف حرف التشبيه من أسلوبه كله، أما تودوروف فقد أبعد التشبيه الصريح عن لغة الشعر.

ب- الانزياح التركيبي: هو الانزياح الذي يتصل بالسياق الخطبي للإشارات اللغوية عندما تخرج على قواعد النظم والتركيب ، ما يكسب العبارة الأدبية قيمة فنية، ومن أمثلته التقديم والتأخير والحذف والإضافة.

يسمي جون كوهين هذا النوع من الانزياح " بالانزياح النحوي" ، ويسمى القائم منه على التقديم والتأخير بالقَلبْ، ويمثل له بسطر شعري.

تحت جسر ميرابو يتدفق السين

ويبين أن الدلالة لم تكن نفسها ولا الشاعرية لو كانت الكلمات مرتبة على نحو عادي: يتدفق السين تحت جسر ميرابو ، وتجدر الإشارة إلى أن دراسة الانزياح الاستبدالي تستدعي في كثير من الأحيان دراسة الانزياح التركيبي إذ يفضي الأول إلى الثاني غالبًا، فلو تم اختيار المفرد بدل الجمع مثلا فسيحدث انزياح استبدالي يترتب عليه انزياح تركيبي حتما.

خلاصة يمكن القول إن الدراسات الأسلوبية اهتمت بالانزياح باعتباره ظاهرة أساسيّة في تشكيل جماليات النصوص الأدبية، وقد تعددت المصطلحات الدالة عليه وهو ما يؤكد أهميته، وقد تم تقسيمه إلى عدة أنواع حسب تصنيفات عديدة أهمها تلك التي اعتمدت مبدأي الاختيار والتركيب، فكان الانزياح الاستبدالي والانزياح التركيبي من أبرزها.

ثانيا : المفارقـــــة

1- مفهوم المفارقـــة :

المفارقة لغة هي مصدر الفعل فَارَقَ ، فَارَقَ الشيء مُفَارَقَةً وفِرَاقًا أي باينه، و فَارَقَ فلان اِمراته مُفَارَقَةُ وفراقًا أي باينها ، أما اصطلاحا فهو مصطلح ذو أصل يوناني

Paradox ، يتألف من مقطعيـن Para تعني المخالفــة والضد، و Doxa وتعني الرأي ، أي ما يخالف الرأي الشائع .

ويرى ميويك Muecke أن المفارقة ليست ظاهرة بسيطة ، وهي عنده « قول شيء بطريقة لا تستثير تفسيرا واحدًا ، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المغايرة » .

وقد وضع معجـم إكسفورد Oxford مجموعــة من التصـورات للمفارقـــة لا تخرج في مجملها عن كونها قــول الشيء وإرادة نقيضــه « إمّا أن يعبر المرء عن معناه بلغة توحي بما يناقــض هذا المعنى أو يخالفــه ولاسيما أن يتظاهر المرء بتبني وجهة نظر الآخر، إذ يستخدم لهجــة تدل على المدح ولكن يقصـد السخريــة أو التهكم ، وإما هي حدث أو ظرف مرغوب فيه ، ولكن في وقت غير مناسب البتّه، كما لو كان في حدوثــه في ذلك الوقت سخرية من فكرة ملاءَمة الأشياء ، وإما هي استعمال اللغة بطريقة تحمل معنى باطنا موجها لجمهور خاص مميز، ومعنى آخر ظاهرًا موجها للأشخاص المخاطبين أو المعنيين بالقول » .

فالمفارقــة اللغوية تستدعي وجود معنيين معنى ظاهر ومعنى خفي ، وهو ما ذهبت إليه نبيلة إبراهيم ، تقول : « إنها لعبة لغويــة ماهرة وذكية بين طرفيــن : صانع المفارقة وقارئــها على نحــو يقــدم فيه صانــع المفارقــة النص بطريقــة تستثيــر القارئ وتدعوه إلى رفض معناه الحرفي ، وذلك لصالح المعنى الخفي الذي غالبا ما يكون المعنى الضد، وهو في أثناء ذك يجعل اللغة يرتطم بعضها ببعض ، بحيث لا يهدأ للقارئ بال إلا بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه ليستقر عنده».

المفارقــة انحراف عن المعنى الظاهر إلى معنى باطن ، وهو ما جعل عبد السلام المسدي يؤكد على علاقتها مع الانزياح ، يقول : « ربط مفهوم الأسلوب بمجموع المفارقات التي نلاحظها بين نظام التركيب اللغوي للخطاب الأدبي وغيره من الأنظمة وهي مفارقات تنطوي على انحرافات ومجازفات ، بها يحصل الانطباع الجمالي».

وهو ما يؤكده ناصر شبانـة في تعريفـها « المفارقــة انحراف لغوي يؤدي بالبنيـــة إلى أن تكون مراوغة وغير مستقرة ومتعددة الدلالات ، وهي بهذا المعنى تمنح القارئ صلاحيات أوسع للتصرف وفق وعيه بحجم المفارقة ».

إن وضع تعريف شامل للمفارقــة أمر صعب خاصّة أنها تشمل مجالات واسعــة ، وقد مرت بمراحـل عديدة ، وهو ما عبّر عنه ميويك بقولـه : « لو اكتشف امرؤ في نفسه دافعًا لإيقـاع امرئ آخر في اضطراب فكـري ولغـوي ، فلن يجد خيــرًا من أن يطلب إليــه أن يدوَّن في الحال تعريفا للمفارقة ».

وإذا بحثنا عن المفارقة في التراث العربي فإننا لا نعثر لها على مصطلح ، غير أن هذا لا يعني عدم وجودها مفهومًا ، فهناك من الفنون البلاغيّة ما يقترب من المفارقة حدّ المطابقة مثل :

التهكم: هو الإتيان باللفظ في غير موضعه كالمدح في معرض الذم أو الاستهزاء مثل قوله تعالى:﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (سورة الدخان ، الآية : 49)

تجاهل العارف: هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدًا، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ (سورة طه ، الآية : 17)

وغيرها من الفنون البلاغية التي تقترب من المفارقة .

3- عناصر المفارقة ودورها :

كل عمل أدبي لابد أن يتوفر على عناصر حتى يحقق تواصلا، وهي المرسل والمتلقي والرسالة ، هذه العناصر يمكن ترجمتها في بنية المفارقة إلى :

- **المرسل** : صانع المفارقة .
- **المتلقي** : متلقٍ واعٍ يعيد إنتاج الرسالـة .

– **الرسالة** : بنية المفارقة وتخضع لإعادة التفسير .

غير أن المفارقة لابد لها من عناصر أخرى حتى تحدث انحرافًا وهي:

– **وحدة البناء وتعدد الدلالــة** : وهي بنيــة لغويــة تشع بدلالات متعددة أقلّها دلالتان تكونان متضادتيــن غالبا.

– **القرينة أو المفتاح** : لابد لصانع المفارقة أن يقدم للمتلقي قرينة أو قرائن تساعده على اكتشاف المعنى الخفي ، وهي في الغالب قرائن سياقية .

– **ضحيــة المفارقــة** : فمقابــل المتلقي الواعي شديــد الفطنــة هناك متلق لا يفلح في فك الشّفرة ، فيقع ضحية لها .

فالمفارقــة مراوغــة لغويــة يخفي صانعها وراءها معنى نقيضا لما يريده ، وهدفــه بلوغ أقصى درجات الوضوح ، وحين يكتشف المتلقي هذا المعنى فإنه يتحول إلى صانع للمفارقــة ، لذلك فإن الدافع الفني والجمالي هو الذي يمارس الدور الأكبر في صنع المفارقة ، فكل ممنوع عند القارئ مرغوب ، والأبعد هو الأجمل ، والغامض هو الذي يسعى القارئ لاكتشافه .

وبهذا عُدّت المفارقــة من أبرز الظواهــر الأسلوبيــة ، لأنها تحدث أثــرًا فنيا كبيــرًا في النصوص الأدبيــة من خــلال انحرافها عن المعنى الحقيــقي إلى معنى خفي يكــون في الغالب نقيضًا له بغية إيضاحه أحيانًا أو السخرية أو إخفاء موقف ما والتعبير عنه بطريقة غير مباشرة ... ، لذلك فهي تحتــاج إلى صانع ذكي يخفي المعنى بطريقــة فنيّة في بنية المفارقة ليعيد المتلقي الواعي تفسيرها وإنتاجها.